الكتابة التاريخيّة في البلاد التونسيّة خلال الفترة الاستعماريّة: عبد العزيز الثعالبي نموذجا

Historical writing in Tunisia during the colonial period: Abd al-Aziz al-Tha'albi as a model

الدكتور/ محمد البشير رازقي
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
تونس
Rezgui.medd@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020-04-20 تاريخ القبول: 2020-11-16 تاريخ النشر: 2021-01-26

The Summary

The process of writing, especially historical writing, is a civilized product and a product of its age and historical contexts. In this framework of knowledge, we will try to study the process of historical writing by an important social actor in Tunisian countries in the first third of the twentieth century, namely Abdelaziz Al-Thaalbi, by reading in his book "Articles in Ancient History". In this context, we find ourselves studying an important and active figure in the contemporary history of Tunisia, especially during the colonial period, and at the same time practicing writing history.

Through our study of "Essays in the Ancient History" book by Abdel Aziz Al-Thaalabi, it became clear to us that the present and the reality of the author left clear imprints in the folds of the book. Al-Thaalabi sought to locate the Tunisian countries during the ancient period in their Arab surroundings, completely reflecting all colonial policies, whether French or Italian, for French or "Romanization" of Tunisian history. And Thaalbi through the book stands out in the dress of the educated and historian fighter, just as he spent his life in the dress of the political fighter.

Keywords: Tunisia - historical writing - colonial period - Abdel Aziz Al-Thaalibi

الملخّص:

تعتبر عمليّة الكتابة وخاصّة الكتابة التأريخيّة منتج حضاري ووليدة عصرها وسياقاتها التاريخيّة. في هذا الإطار المعرفي سوف نحاول أن ندرس عمليّة الكتابة التاريخيّة عند فاعل اجتماعي مهمّ في البلاد التونسيّة في الثلث الأوّل من القرن العشرين ألا وهو عبد العزيز الثعالبي من خلال قراءة في كتابه "مقالات في التاريخ القديم". في هذا الإطار نجد أنفسنا ندرس شخصيّة مهمّة وفاعلة في تاريخ تونس المعاصر خاصّة خلال الفترة الاستعماريّة، وفي نفس الوقت يمارس كتابة التاريخ.

من خلال دراستنا لكتاب "مقالات في التاريخ القديم" لعبد العزيز الثعالبي تبيّن لنا بوضوح أنّ حاضر المؤلّف وواقعه ترك بصمات واضحة في ثنايا الكتاب. فقد سعى الثعالبي الى موقعة البلاد التونسيّة خلال الفترة القديمة في محيطها العربي عاكسا تماما لكل السياسات الاستعماريّة سواء الفرنسيّة أو الإيطاليّة لفرنسة أو "رومنة" التاريخ التونسي. والثعالبي من خلال الكتاب يبرز في ثوب المناضل المثقّف والمؤرّخ مثلما قضّى حياته في ثوب المناضل السياسي.

الكلمات المفاتيح: تونس– الكتابة التاريخية– الفترة الاستعماريّة– عبد العزيز الثعالبي

مقدّمة:

تعتبر عمليّة الكتابة وخاصّة الكتابة التأريخيّة منتج حضاري ووليدة عصرها وسياقاتها التاريخيّة. روجر شارتيي من جهته يبرز دور المناخات الثقافيّة والحضاريّة في بلورة فكرة أو أطروحة معيّنة[1]. في هذا الإطار المعرفي سوف نحاول أن ندرس عمليّة الكتابة التاريخيّة عند فاعل اجتماعي مهمّ في البلاد التونسيّة في الثلث الأوّل من القرن العشرين ألا وهو عبد العزيز الثعالبي من خلال قراءة في كتابه "مقالات في التاريخ القديم". في هذا الإطار نجد أنفسنا ندرس شخصيّة مهمّة وفاعلة في تاريخ تونس المعاصر خاصّة خلال الفترة الاستعماريّة، وفي نفس

الوقت يمارس كتابة التاريخ. نحن إذا أمام مثقّف منغمسٍ في حاضره متأثّرا به ومؤثّرا فيه يحاول تمثّل تاريخ بلاده، فما هو دور المشاعر والتمثّلات والذاكرة[2] في مؤلّف الثعالبي؟

من زاوية أخرى هل تعتبر كتابة التاريخ عند الثعالبي انطلاقا من دراستنا لكتابه كتابة تاريخيّة تقليديّة قائمة على تسلسل الأحداث والسرد؟ أم تجاوزها ووصل لمرحلة التحليل والتأويل والاستنتاج؟

كيف تمثّل الثعالبي شخصيّات الماضي (أميلكار، حنبعل...) ودوله (قرطاج، روما، الدولة الفارسيّة...)؟ وكيف نظر الى البلاد التونسيّة من خلال السيرورة التاريخيّة جغرافيا (هل هي بلد متوسّطي أو افريقي...)، وفكريّا (بلد عربي، روماني...)؟

1. التأريخ عند الثعالبي والسياقات السياسيّة:

من خلال هذا العمل وكما لاحظ محقّق الكتاب أنّ الثعالبي خرج "عن منهج المدرسة التاريخيّة الكلاسيكيّة التي كان روّادها أمثال المسعودي وابن خلدون يبتدؤون للتأريخ للشمال الإفريقي بالفتح الإسلامي دون اهتمام بالفترة الطويلة السابقة لهذا الفتح والتقلّبات الخطيرة التي عرفتها المنطقة خلال تلك الفترة"، هذا دون اغفال تأثّر الثعالبي الواضح بابن خلدون خاصّة من ناحية علاقة مسألة الظلم بخراب العمران[3]. ولا ننسى هنا السياق الاستعماري الذي كتب فيه الثعالبي. كما لاحظ المحقق أن الكاتب لم يكتف بسرد الأحداث بل كان هدفه من العمليّة التاريخيّة استنهاض همم أبناء البلد و"مراقبة ما يقع تحت أنظارهم من أحداث للعبرة والموعظة"[4]. كما نلاحظ اعتماد الثعالبي كثيرا على الطبري.

نجد لدى الكاتب تسلسل تقليدي في تأريخه لتاريخ العرب القديم (الكنعانيين، الفينيقيين، حضارة ما بين النهرين...)، حيث تناول أّولا الجغرافيا ثمّ تأثيرات الجغرافيا في "السجايا" وطريقة التفكير والمعتقدات[5]. ويقسّم الثعالبي التاريخ القديم الى "العصر الخرافي" وهو عصر "تغشاه ظلمة شديدة وممزوج بكثير من الخرافات التي لا يركن اليها العقل"[6].

نجد لدى الكاتب اطلاعا واسعا بالتاريخ الفارسي وخاصّة اليوناني، ويمتدح كثيرا فلسفة سقراط[7]. وهو أيضا متحامل كثيرا على الحضارة الفارسيّة، ويقول مثلا عند حديثه عن تاريخ اليمن "لولا ظهور الرسالة المحمّديّة التي جاءت لإنقاذ العالم وخلّصت اليمن من الاستعباد الفارسي وإعادته الى حضن العربية لكان اليوم من أحطّ المستعمرات الفارسية يعثو فيه الظلم والخراب"[8].

من خلال تحليلنا للمصطلحات نجد أن الثعالبي يستخدم كثيرا مصطلح "شمال إفريقيا" عندما يتكلّم عن تونس/الجزائر/المغرب[9]، هذا المصطلح بالتحديد له تاريخ سياسي تونسي في نطاق الفترة الاستعمارية خاصّة بعد تأسيس جمعيّة "طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا" سنة 1927، هذه الجمعيّة "حاولت منذ تأسيسها الدفاع عن طلبة المغرب في فرنسا وظروفهم الماديّة الصعبة"[10].

ومنذ مساهمته الفاعلة في تأسيس الحزب الحر الدستوري التونسي سنة 1920 اهتم الثعالبي بأهمية الدستور والمجالس التمثيلية والأحزاب وحرية التعليم في حياة الدولة[11]، ولهذا نجده في كتابه يثني على دور "مجلس تشريعي مركّب من مائة عضو يتعيّنون من التجّار الفينيقيين يترأّسهم في كلّ سنة شيخان بالإنتخاب" رغم بعض التحفّظات التي قدّمها[12]. لكن نلاحظ من

خلال المصطلحات السياسيّة التي يستخدمها الثعالبي انغماسه في واقعه وتأثّره بالظروف السياسيّة التي هو جزء منها، فنجد يتحدّث عن أهل قرطاج ب"المواطنين" و"وطنيين"[13]. أيضا الأخطار المحدقة بالبلاد التونسيّة قبيل الحرب العالميّة الثانية تركت بصماتها على مؤلّفه، فنجد يتحدّث عن الجيش القرطاجي وأهل البلاد ودورهم في "حماية الوطن من الغوائل الأجنبيّة"[14].

وأشار الثعالبي الى السياسات السيّئة التي اتبعها الفينيقيّون ضدّ أهل البلاد مستحضرا في نفسه الأساليب الاستعمارية التي يعايشها يوميّا، ف"القساوة من طرف الحكومة وقلّة اكتراثها بالشعب...فقد جفاها الوطنيّون وغضبوا عليها"[15]، أيضا فالفينيقيون "ازدادوا اذلالا لمواطنيهم...وكأنّ عظات الدهر لم تنذرهم بأنّ الصلف والكبرياء في نفوس المتغلّبين في نفوس المتغلّبين يفرّخان في روع المقهورين حبّ الثيار والانتقام، وماهي إلا يقظة تعقبها وثبة ثمّ تتلوها هزّة"[16]. الظلم الذي ميّز سياسة الفينيقيين ضدّ أهل البلاد ترك "في كلّ كورة مناحة وفي كلّ مترل لوعة وفي كلّ قلب جرحا نغّارا يدعو الى الثأر والانتقام لأولئك الشهداء الذين ذهبوا ضحيّة الاستبداد القرطاجنّي"[17]. عبئ الحاضر وثقله على نفس الكاتب واضح وجليّ من خلال هذه الكلمات خاصّة بعد تصاعد السياسات القمعيّة لسلطة الاحتلال الفرنسي خاصة مع وصولنا ل"سنوات الغليان" في ثلاثينات القرن العشرين خاصة بعد عودة الثعالبي من المهجر في جويلية سنة 1937 "حيث ظهرت محاولات لتوحيد الحزبين تحت إشرافه، إلا أن قيادة الحزب الجديد ماطلت...كان هذا الرفض مؤشرا على حدة التنافس بين الزعماء وتحديدا بين بورقيبة والثعالبي"[18]، هذا دون أن نغفل قمع سلطة الاستعمار للحركة الوطنية بين شهري مارس وجويلية 1937 و"أدت الى سقوط 24 قتيلا و21 جريحا..."[19].

ارتباط الثعالبي بواقعه جعله لا يثق بكلّ ما هو أجنبي خاصّة المستعمر، حيث نجده يتحدّث عن الرومان "لم يكن الرومان جادين ولا صادقين في إبداء عطفهم على الأفارقة"، وفي نفس السياق نجده يرجع الى مسألة الفرقة الداخليّة والحيلة الاستعمارية المعروفة –فرّق تَسُدْ– فالرومان "كانوا يسعون وراء هذا العطف المصنوع أن يوجدوا نزاعا داخليّا في مملكة قرطاجنّة بينها وبين عناصرها الوطنيّة لإعاقتها عن التقدّم وذلك لتسهيل إيصال الضربة إليها من الخلف يوم يشتبكون معها في حرب ضروس"[20]. نلاحظ من خلال هذا الاستشهاد أن الثعالبي يتلكم بلغة واقعه ويترجم حرفيّا السياسة الاستعمارية الفرنسية.

أيضا خلال تحليله لوضعيّة هميلكار(أبو حنّبعل) وخاصّة عند قوله "لو قدر النجاح لمشروع هميلكار لبقيت أوروبا الطاغية اليوم مستعمرة أبديّة لشمالي إفريقية"[21]، ومن خلال كلامه يبرز الثعالبي وعيه بالدور الأوروبي في الوضعيّة التي وصلت لها البلاد التونسية خاصة مع الاحتلال الفرنسي لتونس، ولا يخفي تحسّره عن ضياع فرصة الاحتلال الأبدي لهذه القارّة "الطاغية" من طرف ضحايا الاستعمار أي "شمالي إفريقية"، أي كان يمكن أن تنعكس الآية ويتحوّل المستَعمِر مستَعْمَرْ.

الثعالبي يرسم لنا بدقّة إعادة قراءة الواقع البلاد التونسيّة –من زاوية نظر تأريخيّة– عشيّة إمضاء اتفاقية الحماية الفرنسيّة على البلاد التونسية في 12 ماي 1881 [22]. فالبلاد التونسيّة وجدت نفسها عاجزة عسكريّا ومفكّكة اجتماعيا وممتلئة بالدسائس سياسيّا أمام الاحتلال الفرنسي سنة 1881. لكن أهمّ نقطة في الفكر السياسي عند الثعالبي أنّ الحدث الاستعماري ينبثق خاصّة من جرّاء تهاون أهل البلاد سواء في فترة قرطاج أو في العهد الحديث، ف"العبرة الفاجعة من هلاك قرطاجنّة أنّها لم تسقط من علياء مجدها بقوّة سواعد الرومانيين

ولا بمهارة تدابيرهم السياسية، ولكن بشفوف القرطاجنيين على الأفارقة...سقطت سقوط الجدار المتداعي بسبب فقد التماسك بين أجزائه. فذهب كأمس الدابر ضحيّة الشفوف والطغيان. وبالرغم من توالي القرون على هذه الفاجعة فإنّ في أفئدة الوطنيين من ذكرها قروحا لا تندمل ولا ينساها تاريخنا القومي"[23]. ف"المعاول" التي قوّضت "هذه الدولة العزيزة" "كانت بيد الأفارقة أصحاب البلاد وإن كان لغيرهم أثر في ذلك فهو ثانوي لا يقوى على التقويض"[24]. إذا يستنتج الثعالبي أن العوامل الداخليّة وخاصّة التفكّك الداخلي المجتمعي هو العامل الأساسي لتمكّن الاستعمار من البلاد في العهد القرطاجنّي، والكاتب لا يمكن أن ينسى الظروف التي مرّت بالإيالة التونسيّة قبل الاستعمار الفرنسي وخاصّة فساد الوزراء وأعوان الدولة، من عائلة الباي والوزير الأكبر مصطفى بن إسماعيل وصولا الى على بن عيّاد الذي سرق الخزينة التونسيّة وهرب بمحتوياتها الى فرنسا في سبعينات القرن التاسع عشر.

كما ينقلنا الثعالبي من واقع قرطاج الى عصره هو ويقوم بمقارنة بين "أفارقة الأمس وعرب اليوم"، حيث "وقف العرب المشارقة أمام الدولة المغيرة على بلادهم بعد أن عاقدوها على حرب الأتراك للتخلّص من ربقتهم، و لم يتخلّصوا حتّى شاهدوا تلك الدول الحليفة تنشب أضفاها فيهم"، ويقدّم هنا الثعالبي الحلّ للتخلّص من الاستعمار والتأكيد على أن العرب "طلاّب حقّ لا عبوديّة" وهو أنّ على العرب "كما تخلّصوا من ربقة الأتراك بحدّ السيف سيتخلّصون أيضا من الطامعين في أسلابهم، وعلى الباغي تدور الدوائر"[25]. الثعالبي يقدّم لنا استقراء لواقعه انطلاقا من تجارب التاريخ وأحداثه. هنا يصبح التأريخ عملية واعية يستفيد منه الدارس في فهم أحداث الماضي لكي يستوعب جيدا حاضره ويستشرف جيّدا مستقبله. أمّا الهدف الأسمى في الأخير فهو "فكّ أغلال الاستعباد عن الرقاب"[26]. وهنا يقوم الثعالبي بقفزات

متتالية بين الأزمنة والقرون بين قرطاج والحاضر، ونجده يقول أنّ "المُلام المُوجّه للأفارقة القدماء والعرب المعاصرين على بينهما من فواصل القرون في تحالفهما مع الرومان وحلفائهم من بعدهم كان على إفراطهم في تحسين الظنّ بمعاقديهم وتناسيهم عِبَرَ التاريخ حتّى وقعوا في مشاكل صعبة"، وفائدة التجربة التاريخيّة وأخذ العبرة منها حسب الثعالبي هو أنها "تفيد الوقاية لا الدفاع"، أي التاريخ لا ينفع كثيرا بعد وقوع الحادث[27].

من ناحية أخرى ومنذ احتلال فرنسا للبلاد التونسيّة نجد أنّ إيطاليا دائما ما تذكّر سواء في الصحف أو عبر سياسييها أو أكاديميّا خاصّة المؤرّخون الإيطاليون أو علماء الآثار أن لإيطاليا الأحقيّة في تملّك البلاد التونسيّة لأنّها إرث روماني وذلك لسعي إيطاليا لمحورة مصالحها السياسيّة والاقتصادية والثقافيّة حول البحر المتوسّط[28]، وبرز هذا التيّار خاصّة بعد وصول موسوليني الى السلطة وتشديده على نظريّة "بحرنا" وتذكيره الدائم للشعب الإيطالي بمجد روما القديم الذي كان مركزه البحر المتوسّط، "M. Mussolini éveiller dans le peuple italien des forces et des ambitions nouvelles, lui rappeler la glorieuse fortune de l'Empire romain"[29].

بل أصبح هذا الخطاب الإيطالي حول المتوسّط هو محور السياسة الخارجيّة الإيطاليّة، وهذا الخطاب احتدّ مع اقترابنا من الحرب العالميّة الثانية[30]، وكان الثعالبي شاهد عيان وفاعل اجتماعي مهمّ يُؤَثّر ويتأثّر، وهذا ما انعكس على تأريخه وحاول تفنيد الأطروحة الرئيسيّة في الخطاب الإيطالي كون أهل البلاد التونسية تأثّروا بالعادات الرومانيّة بل "ترومنوا"، وازداد هذا الانغماس في الحضارة الرومانيّة مع اعتناق الدين المسيحي من طرف سكّان البلاد. هنا الثعالبي يدحض هذا الرأي مبيّنا أنّ "الأفارقة لم يتنصّروا حبّا في النصرانيّة ولكنّهم اتخذوها وسيلة

يتخلصون بها من اضطهاد الرّومان بدليل أنّهم كانوا ينتحلون المذاهب الشاذّة ويتّخذون ما فيها من خلافات للمذاهب الشائعة وسيلة لإحداث الارتباك والتجاهر بطلب الاستقلال...وقد عجزت الحكومة الرومانيّة عن صدّ هذا التيّار حتّى اضطرّت سنة 330 على عهد القيصر قسطنطين الى الاعتراف رسميّا باعتبار المسيحيّة دينا تجوز ممارسته في البلاد، وقد عدّ هذا الاعتراف في ذلك العهد بمثابة فوز للديمقراطيّة على الأرستقراطيّة الرومانيّة"[31]. الثعالبي في هذا الإطار قلب المعادلة على الطرح الإيطالي المعاصر معتبرا أن "الأفارقة" اعتنقوا الدين المسيحي كاستراتيجيا لإخراج الرومان من البلاد لا حبّا في المسيحيّة. وبعد خروج "الفندال" من البلاد "تبيّن للأهالي الخيط الأبيض من الخيط الأسود من فجر نهضتهم في صبيحة اليوم التالي" وذلك عند دخول الإسلام[32].

يستند الثعالبي الى رأي أنّ المستعمر لا بدّ أن يزول، وذلك في محاولة منه للتعامل مع الواقع الاستعماري الذي ترزح تحته البلاد، وهذا ما يؤكّده في ممارسته للعمليّة التأريخيّة حيث يقول "شاهدت القرون أجيالهم في مصارع البغي من خلال الأحقاب وهي ترقب بعين اليقظة الفرصة السانحة للتوثّب على ظالميها واسترداد منها من كرامة وحقوق"[33].

وقد شهدت المرحلة الاستعماريّة التي عايشتها البلاد التونسيّة مجموعة من الاستراتيجيّات التي وظفتها فرنسا في محاولة منها للسيطرة على المجتمع استنادا للمبدأ البريطاني المعروف "فرّق تَسُدْ"، نفس هذه السياسة الفرنسيّة وظّفت في المغرب الأقصى والجزائر. ففي الجزائر مثلا "سياسة فرّق تسد مارستها فرنسا حتى بين الأحياء الصغيرة والدواوير ذات بضع النسمات من السكّان"[34]. ومن هنا أكّد الثعالبي على أنّ مقاومة الأفارقة للمستعمر يجب أن يكون منطلقها موحّدا أي "تركيز الاستقلال على أساس وحدة الشعور بالملية الوطنيّة وهي

تتنافى مع الملية الرومانيّة كليا"[35]. كما يؤمن الثعالبي من خلال كتابه بأنّ الحالة الاستعمارية حالة مؤقّتة في المكان والزمان ومصيرها الزوال، ف"من القضايا المسلّمة أنّ الاحتلال هو عاصفة اجتماعيّة تهبّ ثمّ تسكن أشبه ما تكون بالأحداث تظهر ثمّ تزول، وتبقى آثارها أحاديث بين الناس إن خيرا فخير وإن شرّا فشر، ولو كتب لواحد منها الخلود لكان ذلك للاحتلال الفندالي المحبوب لإفريقيا الشماليّة" [36]. والثعالبي يستغلّ كتابته للتاريخ لإبراز كرهه للظاهرة الاستعمارية في حدّ ذاتها، وعندما يتحدّث عن الاحتلال البيزنطي للبلاد التونسية مثلا يقول عنه أنّه "تلك العلاقة الآثمة التي وصلت إفريقيتنا المحبوبة بعسف البيزنطيين"[37].

2. التأريخ عند الثعالبي والسياقات النفسيّة والاجتماعيّة

نجد الفصل الأوّل من الكتاب بعنوان: "الفصل القرطاجي". وقد وضع الثعالبي نقطة انطلاق لهذا الفصل هو وصول الفينيقيين للبلاد أي "البحارة الفينيقيين، سادة الملاحة في البحر الأبيض المتوسّط". ونزلوا "سواحله الجميلة (أي سواحل تونس)، و"وألفوا أهله (أي أهل تونس) قوما من رهطهم الأدنين سلائل العرب الأقحاح الذين دفعتهم موجات الجزيرة فرمت بهم الى هذا الطرف من القارّة الإفريقيّة بأرض خصبة نضرة جيّدة المحصول عذبة المياه نقيّة الهواء...لا تفترق طبيعتها عن طبيعة مواطنهم في صور وصيدا وبيروت، فطاب لهم المقام وازدادوا تعلّقا بها حين تألّفوا السكّان واستأنسوا بلقائهم" [38]. نلاحظ من خلال هذا الاقتباس أن الثعالبي ركّز على عروبة السكّان الأصليين للبلاد قبل وصول الفينيقيين، ولا يمكن أن نعزل هذا الإصرار على هويّة التونسيين، عرب "أقحاح"، بدون أن نضع الثعالبي في سياقه المجتمعي الاستعماري، فمنذ العشرينات احتدّ النقاش بالبلاد التونسيّة بتشجيع من الفرنسيين على هويّة السكّان خاصّة مع بروز أزمة المتجنّسين التونسيين، أيضا الاستفزازات الدينيّة المتكرّرة التي

مارستها سلطة الاحتلال الفرنسي بعد "تركيز تمثال الكاردينال لافيجري رافعا الصليب قبالة النهج المؤدي لجامع الزيتونة" سنة 1925 وتنظيم المؤتمر الأفخارستي سنة 1930 [39]. في هذا الإطار المشحون بتجاذب الهويّات ألحّ الثعالبي على الهويّة العربيّة للتونسيين منذ ما قبل مرحلة تأسيس قرطاج (814 قبل الميلاد) على يد الفينيقيين. دون أن نغفل هنا عامل مهمّ وهو تركيز كل من فرنسا وإيطاليا مع اقترابنا من الحرب العالميّة الثانية من أحقّية كل منهما على السيطرة على تونس مع التركيز على الإرث الروماني لتونس خاصّة مع توسّع عدد الجالية الإيطالية بالبلاد التونسيّة[40]. هنا الثعالبي أكّد عروبيّة البلاد دفعا منه لكلّ محاولة لربط البلاد التونسيّة من طرف بعض المثقفين الفرنسيين بالأصول البربرية أو بالموروث الروماني. بل يعيد هذا التأكيد على الأصل العربي لأهل إفريقية في موضع آخر من الكتاب، ف"الأفارقة العرب الذي طفح بهم مكيال الجزيرة منذ أقدم العصور منذ أقدم العصور فانسابوا على أديم هذه الأرض الافريقية"[41].

يتحدّث الثعالبي عن التمثّلات التي كان يحملها "الرومان" ضدّ "الأهليين" حيث "طرقتهم الدعاية الرومانية بأنّهم شعب محيق مهضوم فأيقظتهم من سِنتهم (أي نومهم) فإذا هم قيام ينظرون... لم يكن الرومان جادين ولا صادقين في إبداء عطفهم للأفارقة...فكانوا يسعون من وراء هذا العطف المصنوع أن يوجدوا نزاعا داخليّا في مملكة قرطاجنّة بينها وبين عناصرها الوطنيّة لإعاقتها من التقدّم، وذلك لتسهيل إيصال الضربة إليها من خلف يوم يشتبكون معها في حرب ضروس"[42]. من خلال هذا الكلام لا يمكن أن نغفل عن المؤامرات التي تعرّض لها الثعالبي نفسه وحزبه "الحزب الحر الدستوري التونسي" والمحاولات المتكررة من قبل الاستعمار الفرنسي لاختراق هذا الحزب أو تفتيته وتقسيمه. وهذا ما حصل فعلا عند تأسيس "الحزب

الحر الدستوري الجديد" وذلك بعد انشقاق عدد من القيادات الشابة عن حزب الثعالبي في مقدمتهم الحبيب بورقيبة. وكان من أهم أسباب هذا الانشقاق "كان الثعالبي يعول على إعطاء الحركة (أي الحركة الوطنية) بعدا عربيا إسلاميا تحقيق الاستقلال في نطاق الوحدة العربية الإسلامية، فيما كانت جماعة الدستور الجديد أكثر ميلا الى تحرير البلاد دون التخلي عن العلاقات مع فرنسا"[43]. نفس هذا الهاجس الذي يترجم عن دور الانشقاق في تفتيت المجهود النضالي ضد المستعمر يعبر عنه الثعالبي في بيان له الى الشعب التونسي سنة 1037 ويقول فيه أن المنشقين تحالفوا مع السلطة الفرنسية ومع بعض الصحف لتشويه الحزب[44].

من خلال عمل الثعالبي نجده يؤمن بدور الفرد في تلافي الأزمات وتوحيد الصفوف وهذا ما ينسجم مع محيطه الثقافي والحضاري الذي نشأ فيه، ولهذا نجده يكتب عن "محاولة هميلكار تلافي الخلاف وإنصاف الوطنيين...وتعديل النظام الذي يعتبر أصحاب البلاد نفاية لا حقّ لهم فيها"[45]. وفي سرده لقصّة هميلكار نجد ضلال لسيرة الثعالبي الذاتيّة في هذه القصّة، فأميلكار قُرِّرَ أن يخلّص منه ...بإقصائه عن البلاد"[46]، والثعالبي أيضا لّما أصبح يهدّد المشاريع الاستعمارية الفرنسية في تونس وبدأ بنشر الوعي السياسي وأهميّة المقاومة طرد من البلاد وعاش طويلا في المنفى حيث "سرعان ما تعرض الثعالبي مثل بقية قياديي الحركة(حركة الشباب التونسي) الى الإبعاد عن تونس–1912–"، ثم في العشرينات "بعد ظهور الانقسام داخل الحزب الدستوري وتزايد ضغط المقيم العام الفرنسي اضطر الثعالبي الى مغادرة تونس(1923)"، و لم يرجع الى البلاد الا سنة 1937 [47].

والكاتب من خلال تأريخه لتاريخ تونس القديم أبرز بوضوح هوسه بفكرة الانشقاقات التي تصيب حركات التحرّر الوطني، فقد "اغتنم الرومان فرصة انشقاق الوطنيين

على قرطاجنّة فعادوا في سنة 241 الى إشهار الحرب عليها...وهذا كان بداية عهد الانحطاط في حياة الدولة القرطاجيّة...مرض الانحلال فيها تمكّن في خلايا الجسم"[48]. والخيبات التي يعيشها الثعالبي في عصره جعلته يتمسّك ويمجّد أحيانا بعض الشخصيّات التاريخيّة وأهمّها حنّبعل ابن هميلكار، فهو انتصر على الرومان "انتصارا مبينا...وكاد أن يبطش بروما"[49].

أيضا الواقع المرير للثعالبي جعله يتمسّك أيضا برمزيّة الوطن في حدّ ذاته، فهو كثيرا ما يتغنّى بجمال البلاد التونسية، "قرطاجنّة عروس الشرق ومالكة البحار"[50]. كما مجّد الثعالبي مفهوم المقاومة والتضحية من أجل البلاد وخاصّة الدور المهمّ الذي تلعبه المرأة في هذه المقاومة، فعند حصار الرومان لقرطاج "بعد حصار عنيف استقتل فيه القرطاجنّيون وأبدت فيه نساؤهم وطنيّة خارقة حين شعرن بنفاذ الحبال من المعدّات فعمدن الى شعورهنّ وهي زينتهنّ وجززنها وفتلن منها حبالا للجيش"، لكن الثعالبي تأسف عن عدم فائدة هذه المقاومة لأنها جاءت متأخرة بسبب كثرة الاختلافات الداخليّة و"الشعب متشعّب الهوى منشقّ على نفسه تعسف فيه الدسائس الأجنبيّة وجيوش الأعداء محدقة بالمدينة"[51]. من هنا رسم لنا الثعالبي نموذج تفسيري لتفكك الوطن من خلال:

- الاختلافات الوطنيّة الداخليّة.
- المؤامرات الأجنبيّة.
- عدم تكافؤ القوّة العسكريّة.

وهنا يشرح لنا الثعالبي كيف ساهم أهل البلد القرطاجنيين في إضعاف دولتهم وتسهيل دخول الرومان لها. ويرجع ذلك لسببين، أوّلا بسبب سلبيّتهم وتخلّفهم على المساهمة

في المجهود العسكري، وثانيا "فقد كانت بالتحزّب مع الرومان وإنجادهم لمقاتلتهم "[52]. من هنا نلاحظ الهاجس الذي كان دائما يلاحق الثعالبي ألا وهو الخيانة الداخليّة. دون أن نغفل وعيه بالأطماع الماديّة للاستعمار وخاصّة الثروات الطبيعية وذلك بعد أن استفاد من قراءة تاريخ الصراع بين روما وقرطاج[53].

الواقع السياسي الذي عايشه الثعالبي خاصّة في إطار حزبه كان يدعوا الى توضيح العلاقات مع فرنسا بشكل واضح على عكس جماعة الدستور الجديد وفي مقدمتهم بورقيبة الذين كانوا لا يريدون التخلي عن علاقاتهم مع فرنسا، ومن هنا يمجّد الثعالبي "يقظة الأفارقة وجنوحهم الى السياسة الانفصاليّة" في وجه الرومان، و"معاني الرياء والختل والدجل وقلب الحقائق" التي تميّز الرومان وخاصّة سوء النيّة الذي تجلّى من خلال "قسمة البلاد الى مناطق نفوذ وكان مرادهم منها تركيز الحماية الرومانيّة في القسم المعمور المتّصل بالبحر وحصر الترعة الاستقلاليّة وسط بلاد الفاقة ومناطق الجفاف لتقبر هناك في أحضان السراب". وهذا بالتحديد ما طبّقته فرنسا عند احتلالها للبلاد التونسيّة، فقد أحكمت سيطرتها ومتّنت علاقتها مع العاصمة ومدن السواحل، ثمّ ركّزت منطقة عازلة عسكريّة في الجنوب التونسي الذي عطّل لمدّة طويلة احتلال فرنسا لكل التراب التونسي، ثمّ حاولت فرنسا إحكام سيطرتها على مرتفعات الجبال التونسيّة خاصّة المحاذية للحدود الجزائرية التي أصبحت فيما بعد مقرّ أساسي للمقاومين. من هنا نجد أن الثعالبي يفهم حاضره انطلاقا من أحداث الماضي من خلال تشابه التجارب الاستعمارية.

وبعد أن توقّف الثعالبي كثيرا عند حنّبعل، نجده يمجّد شخصيّة أخرى تميّزت ب"العظمة الخالدة، التي تجلّت لنا في حياة "القيل الأمير يوغرطة" الذي تقلّد زعامة البلاد

وانبرى لمناهضة أطماع الرومانيين وكبح جماحهم على افريقيا"[54]. ويُبيّن الثعالبي خصال يوغرطة ويعدّد منها:

- شرع في توحيد الأمّة.
- ألغى النظام الإقطاعي و"أقام على هذه الأنقاض المبعثرة مملكة شعبيّة واسعة الأرجاء ممتدّة من بجاية".
- لّما تمّ له هذا التوفيق أعلن الحرب على الرومانيين لافتكاك الشطر الثاني من أيديهم فأصلاهم نارا حامية.

لكنّ يوغرطة مثل كلّ مرّة كان عرضة للخيانة الداخليّة رغم "وطنيّته النادرة وأصله الفريد"[55]. ونسجّل هنا أنّ مفهوم الخيانة حاضر بقوّة عند الكاتب.

والثعالبي بالمقابل لا ينكر المزايا التي أحدثها الرومان في البلاد سواء في تمهيد الطرقات أو إصلاح الشبكات المائيّة والاهتمام بالفلاحة، فقد "حوّلوا البلاد الى جنّة فيحاء بكثرة ما غرسوا فيها من الأشجار والبساتين المثمرة ومنها غابات الزيتون"، هذا الى جانب بناء "مسارح التمثيل وملاعب الثيران"[56]. لكنّه يقرّ بهذه الفوائد لغاية يظهرها فيما بعد، حيث يشير الى ذكاء أهل البلاد في الاقتباس من الرومان، بل والبناء والتطوير استنادا على تلك الانشاءات و"يقتفون أثرهم في كلّ شيء...حتّى استفادوا منهم فوائد جمّة...رغم الموانع التي أقاموها في سبيلهم ولكن نشاط الأهالي الخارق كسر كلّ قيد وضعوه في أيديهم وأرجلهم"[57]. الثعالبي يقلب المعادلة فهو يعدّد إنجازات الرومان ليشيد بقدرة الأهالي على الاقتباس، بل والأهمّ من ذلك

تطوير ذلك المنتوج الروماني وعدم الاقتصار عليه وجعله محلّيا صرفا الى درجة أن أبناء أهل البلاد "بزّوا ...أبناء الرومانيين ومن هؤلاء النوابغ المعدودين"[58].

كما يُرجع الثعالبي عدم اضمحلال شخصيّة أهل البلاد وتمسّكها بهويّتها الى الأسباب التالية:

- "قوّة الغريزة الوطنيّة في الأفارقة"، خاصّة لّما يعاينوا ظلم الرومان لأهل البلد.
- "العامل الديني عند الرومان"، ويتجلّى ذلك من خلال عدم احترام الرومان للديانة المحليّة.

الثعالبي لم يتعامل عند دراسته للتاريخ القديم من منظور منغلق بل حاول أن يعالج قضايا مهمّة في الماضي وحارقة في عصره من زاوية نظر شاملة. وفي الباب الثاني من كتابه درس "الصّراع العربي الآري في الشرق الأوسط الى ظهور الإسلام" من خلال دراسة دور العرب والفرس واليونان في هذا الصراع[59]. والهدف الأساسي من عدم الاقتصار على تاريخ تونس القديم هو وحدة المصير خاصّة في مقاومة الحالة الاستعماريّة، هذا الرأي الذي يبرز أهمّية النظر الى العالم العربي الإسلامي في كلّيّته ليس غريب على واقع الثعالبي السياسي خاصّة لمت عرف عنه من دفاع عن القضيّة الفلسطينيّة منذ 1923 وقد "كان وراء فكرة عقد المؤتمر الإسلامي بالقدس سنة 1931، وكانت له علاقات واسعة برموز الحركة العربيّة بالمشرق"[60].

من هنا في عملية التأريخ أبرز الثعالبي هذا البعد العربي وقال أنّه "رأينا من المفيد ألا نقصر الكلام على إنقاذ شمال افريقيا وحده وهو جزء صغير جدّا من المنطقة العالمية التي عسف بها الآريّون وأشرق فيها نور الإسلام وحرّر ساكنيها من استعبادهم"[61]. هذا البعد العربي يبرز

من خلال حياة الكاتب السياسيّة، فهو من خلال آرائه أو من خلال حزبه دائما يحرص على ربط البلاد التونسيّة بعمقها العربي الإسلامي.

ومن خلال هذه المراوحة التاريخيّة والجغرافيّة أبرز الثعالبي وعيا عميقا بالتراكم التاريخي حيث أبرز أنّ المعركة الظالمة التي نتجت عنها جميع الشرور الاجتماعيّة التي تعانيها اليوم الخليقة لم تكن وليدة عصرنا الحالي...بل انها أثر أحقاد وترات قديمة...جعلت الشرق في عراك دائم لا هوادة فيه مع الغرب...ولا بدّ للحقّ أن ينتصر مهما طال عناء المقهورين ما دام في الكون عقل وتدبير وطموح"[62]. بل نجد أنّ الثعالبي يحصر كلّ حركة التاريخ بين حركة الصراع بين الشرق والغرب[63].

خاتمة:

من خلال دراستنا لكتاب "مقالات في التاريخ القديم" لعبد العزيز الثعالبي تبيّن لنا بوضوح أنّ حاضر المؤلّف وواقعه ترك بصمات واضحة في ثنايا الكتاب. فقد سعى الثعالبي الى موقعة البلاد التونسيّة خلال الفترة القديمة في محيطها العربي عاكسا تماما لكل السياسات الاستعماريّة سواء الفرنسيّة أو الإيطاليّة لفرنسة أو "رومنة" التاريخ التونسي. والثعالبي من خلال الكتاب يبرز في ثوب المناضل المثقّف والمؤرّخ مثلما قضّى حياته في ثوب المناضل السياسي.

أمّا على مستوى المنهج فقد أبرز الكاتب قدرة تحليليّة وتفسيريّة وتأويليّة واضحة، وبذل مجهود فكري في جمع المعلومات وتفكيكها ثمّ تحليلها. من هنا نستطيع القول أنّ الثعالبي لو يكتف بسرد أحداث الماضي، بل تجاوز هذه المرحلة الى مرحلة التأويل والتفسير ومحاولة

إعطاء إجابات واضحة عن فترة تاريخيّة بعيدة عنه زمنيّا، هذا دون أن نغفل عدم تخلّصه الكامل من شخصيّة المناضل السياسي المتأثّر بأحداث حاضره عند تأريخه لبعض الأحداث المتضمّنة في عمله.

الهوامش:

1–جاك لوغوف(إشراف)، **التاريخ الجديد**، ترجمة وتقديم: محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربيّة للترجمة، 2007

- فرنسوا دوس، **التاريخ المفتّت. من الحوليّات الى التاريخ الجديد**، ترجمة: محمد الطاهر المنصوري، المنظّمة العربيّة للترجمة، 2009
- فرنسوا هارتوغ، **تدابير التاريخانيّة. الحاضريّة وتجارب الزمان**، ترجمة: بدر الدين عرودكي، المنظمة العربيّة للترجمة، 2010

ألون مونسلو، **دراسة تفكيكيّة للتاريخ**، ترجمة: قاسم عبده قاسم، المركز القومي للترجمة، 2015

2.Roger Chartier, Étienne Anheim et Pierre Chastang, « Les usages de l'écrit du Moyen Âge aux Temps modernes », *Médiévales* [En ligne], 56 | printemps 2009, mis en ligne le 21 septembre 2011, consulté le 22 mars 2017. URL : http://medievales.revues.org/5564 ; DOI : 10.4000/medievales.5564

- Chartier Roger, « Culture écrite et littérature à l'âge moderne », *Annales. Histoire, Sciences Sociales*, 4/2001 (56e année), p. 783-802. In, URL http://www.cairn.info/revue-annales-2001-4-page-783.htm
- Roger Chartier, « Le monde comme représentation », *Annales. Économies, Sociétés, Civilisations Année* 1989 Volume 44 Numéro 6 pp. 1505-1520

3– عبد العزيز الثعالبي، ص. 10

4– عبد العزيز الثعالبي، ص، 70

5–عبد العزيز الثعالبي، ص، 108

6–عبد العزيز الثعالبي، ص، 70– 83

7 عبد العزيز الثعالبي، ص، 108

8 عبد العزيز الثعالبي، ص، 124

9 عبد العزيز الثعالبي، ص، 227

10 عبد العزيز الثعالبي، ص.

11 لخضر عواريب، "جمعيّة طلب شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا وعلاقتها بالتيار الاستقلالي في فرنسا (1927– 1955)"، **مجلّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعية**، الجزائر، العدد 24، جوان 2016. (أنظر الموقع الإلكتروني:

revues.univ-ouargla.dz/images/banners/ASTimages/Ssocialesimages/SOCN24/S2421.pdf

12 نور الدين دقّي، **تونس من الإيالة الى الجمهوريّة (1814– 2014)**، المنشورات الجامعيّة بمنوبة، 2016ص. 108 وما بعدها.

13 عبد العزيز الثعالبي، ص. 19

14 عبد العزيز الثعالبي، ص. 19

15 عبد العزيز الثعالبي، ص. 19

16 عبد العزيز الثعالبي، ص.24

17 عبد العزيز الثعالبي، ص. 21

18 عبد العزيز الثعالبي، ص. 24

19 نور الدين دقّي، ص. 158

20 نور الدين دقّي، ص. 160

21 عبد العزيز الثعالبي، ص. 21–22

22 عبد العزيز الثعالبي، ص، 25

23 نور الدين دقّي، ص. 70

24 عبد العزيز الثعالبي، ص، 29

25 عبد العزيز الثعالبي، ص، 31

26 عبد العزيز الثعالبي، ص، 33

27 عبد العزيز الثعالبي، ص، 33

28 عبد العزيز الثعالبي، ص، 33

29. Daniel J. Grange, *L'Italie et la Méditerranée (1896-1911). Les fondements d'une politique étrangère*, Publications de l'École française de Rome Année 1994 Volume 197

30. Pernot Maurice. « La politique italienne dans la Méditerranée ». In: *Politique étrangère*, n°6 - 1936 - 1eannée. pp. 48-60 ; doi : 10.3406/polit.1936.5571, in, http://www.persee.fr/doc/polit_0032-342x_1936_num_1_6_5571
31. Darnis Jean-Pierre, Brice Catherine, Matard-Bonucci Marie-Anne. « Le mythe de la Méditerranée dans le discours politique italien contemporain ». In : *Mélanges de l'Ecole française de Rome. Italie et Méditerranée*, tome 110, n°2. 1998. Les secrétaires d'Etat du Saint-Siège (1814-1979). Sources et méthodes. pp. 805-832, in,.persee.fr/doc/mefr_1123-9891_1998_num_110_2_4590

32. عبد العزيز الثعالبي، ص، 42– 43

33. عبد العزيز الثعالبي، ص، 43 وما بعدها.

34. عبد العزيز الثعالبي، ص، 47

35. سمير خلف الله، "قراءة في سياسة فرنسا الاستعمارية في الجزائر: فرق تسد"(2)، ورد في:

http://www.almothaqaf.com/qadaya2016/2016-04-26-10-36-28

36. عبد العزيز الثعالبي، ص، 49

37. عبد العزيز الثعالبي، ص، 50

38. عبد العزيز الثعالبي، ص، 53

39. عبد العزيز الثعالبي، ص.15– 16

40. نور الدين دقّي، ص.124+ 156

41. Alessio Loreti, « La diffusion de la culture italienne en Tunisie à l'époque coloniale », Africa, LXII, 3, 2007, pp.443-455, in : http://www.academia.edu/6930019/La_diffusion_de_la_culture_italienne_en_Tunisie_%C3%A0_l%C3%A9poque_coloniale

42. عبد العزيز الثعالبي، ص، 67

43. عبد العزيز الثعالبي، ص. 21– 22

44. نور الدين دقّي، ص. 158

45. نور الدين دقّي، ص. 159، نقلا عن: صالح الخرفي، **عبد العزيز الثعالبي من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995، ص. 320– 326

46. عبد العزيز الثعالبي، ص 24– 25

47. عبد العزيز الثعالبي، ص، 25

48. نور الدين دقّي، ص 106– 107

49. عبد العزيز الثعالبي، ص، 25
50. عبد العزيز الثعالبي، ص، 26
51. عبد العزيز الثعالبي، ص،28
52 عبد العزيز الثعالبي، ص،28– 29
53 عبد العزيز الثعالبي، ص، 31
54. عبد العزيز الثعالبي، ص، 34
55. عبد العزيز الثعالبي، ص، 36
56. عبد العزيز الثعالبي، ص، 36
57. عبد العزيز الثعالبي، ص، 39
58. عبد العزيز الثعالبي، ص، 39– 40
59. عبد العزيز الثعالبي، ص، 39– 40
60. عبد العزيز الثعالبي، ص، 65 وما بعدها
61. عبد اللطيف الحنّاشي، "الشيخ عبد العزيز الثعالبي والقضية الفلسطينية: 1923–1944"، في: academia.edu/16939660/الشيخ_عبد_العزيز_الثعالبي_والقضية_الفلسطينية_1923–1944
62. عبد العزيز الثعالبي، ص، 67
63. عبد العزيز الثعالبي، ص، 68